قراءة في : رحلة معاصرة

أ.د. فائز طه عمر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية/جامعة الشارقة

ملخص البحث

يتناول هذا البحث رحلة قام أ.د.محمد مؤنس عوض أستاذ التأريخ الإسلامي الوسيط في جامعة الشارقة عام ٢٠١٠م إلى دمشق لزيارة ضريح صلاح الدين الأيوبي لغاية معرفيّة رغب عوض فيها لعله يعرف صلاح الدين و خصائص شخصيّته , على نحو أعمق و أكبر.

و هذه الرحلة ليست نمطيّة , فقد اختلفت عما هو معروف من رحلات , في تراثنا أو في غيره , فلم يذكر عوض شيئا عن طريق رحلته الذي بدا قصيرالزمن، قطعه بالطائرة من مطار الشارقة حتى مطار دمشق . والرحلة تتحدث , في الأكثر , عما رآه عوض في طريقه من الفندق إلى الضريح في رواحه و غدوّه , طوال ثلاثة أيام،وما أثارت عنده هذه المشاهدات من أفكارواسترجاع معلومات دقيقة عن صلاح الدين و ما رافق حياته من أحداث و مواقف وشخصيات،علّق عليها صاحب الرحلة، و حاول ربطها بحال العرب في العصر الحديث .

حاول البحث إضاءة سرد الرحلة و مستوياته و زمنه و وظائفه , على نحو، لعله، أبان عن خصائص هذه الرحلة و طابعها .

A read in a contemporary journey

Abstract

This paper tackles Dr. MuhannadMunisAwad (PH.d), the professor of the medieval history at the University of Sharjah, trip to Damascus visiting Salah Ad-Deen Al-Ayubi tomb for cognitive purposes imply knowing the characteristics of Salah Ad-Deen character deeply. This modern trip is different from the common journeys in traditions for Awaddoes not refer to the short between Sharjah airport to Damascus. In Damascus, Awad's visiting Salah Ad-Deen tomb along three days forms the subject and the purposes of his trip. In this paper, we really try to shed light on this narration, its levels, time and functions in order to show the main characteristics of this trip.

البحث

هذه رحلة معاصرة ,قام بها الأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض أستاذ التأريخ الوسيط في جامعة الشارقة(١) , انطلقت من مطار الشارقة الدولي , في دولة الإمارات العربية المتحدة , مساء يوم الأربعاء الموافق ٣٠ يونيو عام ٢٠١٠م(٢), الى دمشق التي وصل إلى مطارها (في الساعة الثانية عشرة , صباح الأول من يوليو ٢٠١٠م)(٣) حتى عودته إلى المطار نفسه في الشارقة يوم السبت ٢٠١٠/٧/٣م(٤), فالرحلة هذه استغرقت ثلاثة أيام فقط , حيّزها المكاني هو دمشق , من الفندق الذي أقام فيه عوض إلى ضريح صلاح الدين الأيوبي , و مشاهداته في غدوّه و رواحه , دون ذكر شيء عما رآه و هو في الطائرة , و لا عن مشاعره , فيها، وهو متوجّه إلى دمشق، أو عائد منها, لذا فهي رحلة ليست نمطية و ذات طابع مختلف , و لا يمكن لدارس النصّ إلا أن يدرسه كما هو , و ليس استنادا إلى ما يريده منه أو يتمنّاه له .

سيحاول هذا البحث إضاءة السرد في هذه الرحلة , و مستوياته , و زمنه , و وظائفه , و بنيته و خصائصه العامة, فضلا عن تناول الطابع الفكري و المعرفي

الذي طُبعت به تعبيرا عن سعة معرفة ساردها بصلاح الدين الأيوبي على نحو عميق و مُفصّل ،فهو مؤرخ أكاديمي متخصص بمرحلة الحروب الصليبية عامة، وصلاح الدين خاصة.

السرد

كان السرد المهيمن على هذه الرحلة هو السرد الذاتي , ممّا هو الحال في أكثر الرحلات المعروفة , و هذا السرد هو (سرد الراوي المتكلم الذي يكون فيه الراوي هو الشخصيّة الرئيسة فيه , أو البطل)(٥) , ويستعمل , السارد , ضمير المتكلّم , لأنه هو من قام بالرحلة , و مرّت عليه أحداثها , فهو شاهد عليها(٦), و يعرض الوقائع و المشاهد بحسب مشاعره و اعتقاداته وأحكامه(٧), فالسارد هو الشخصيّة المحوريّة (٨) و المهيمنةفيها.

وجاء هذا السرد على نمطين :الأوّل هو السرد الذاتي الخارجي , تُسرد به أحداث قام بها السارد عوض و سردها , و هي أحداث تتعلق بحركته و سلوكه مع الآخرين , و الآخر هو السرد الذاتي الداخلي و تُسرد به أفعال نفسيّة داخليّة تتمثّل بمشاعر السارد و قراراته و تأمّلاته بصيغ إخباريّة سرديّة .

ومن المناسب الإشارة إلى أنّ أوّل سرد ذاتي ظهر في هذه الرحلة هو سرد ذاتي داخلي نفسي,هو قرار السارد عوض في القيام بالرحلة إلى دمشق لزيارة ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي، لعلّه يرى برؤيته ما لم يره في مصادر حياة صلاح الدين التي قرأها و عُني بها بحثا و تأليفا, و يبدو أنه قرار اتخذه قبل زمن من تنفيذه ,ممّا ظهر فيقوله : (بعد أعوام طويلة طويلة , وشوق مُستعر , أخيرا قررتُ السفر إلى وطني الثاني، سوريا العزيزة , كي أزور صلاح الدين الأيوبي ...)(٩) , و لعلّ سرده حدث اتخاذه هذا القرار الداخلي النفسي كان مهادا نفسيّا و فكريّا سوّغ , به , السارد رحلته و دافعه إليها , و ما حدث في داخله من مشاعر وأفكار و قرارات , أفــصح عــنها بقوله : (على أية حال في يوم ٢ يونيو ٢٠١٠م قررتُ السفر إلى هناك بحثا عن بقايا تأريخ لذلك القائد لعلي

أجده في حواراتي مع الناس البسطاء في دمشق .)(١٠) ,فثمّة أيّام عديدة بين اتخاذه القرار , و تنفيذه الرحلة و تحقيقها .

ويسرد عوض ما بدأ بفعله قبل سفره سردا ذاتيّا خارجيّا , فهاهو يستعدّ للرحلة و يهيئ امتعته وأوراقه وغير ذلك , بقوله :(في الشارقة , جهّزتُ امتعتيوأوراقي في انتظار ذلك الأمر , واتصلت بصديقي ...و طلبت منه أن يدلّني على فندق في عاصمة بلاد الشام التاريخية)(١١), ثمّ نزل في فندق يُعرف بفندق قصر الشرق في دمشق , ذاكرا رقم الغرفة التي أقام بها , قائلا : (و نزلتُ في فندق قصر الشرق , و تحديدا بالغرفة رقم ١٥ ..)(١٢) .

و يختلط السرد الذاتي الخارجي بالداخلي كثيرا , فعوض يتحدّث أو يسرد حركته النفسيّة مع كلّ حركة جسميّة يقوم بها , نحو قوله : (سرت في شوارع دمشق , و تنفّستُ هواءها الرائع , وأدركت كم هي جميلة ..)(١٣) , فـ (سرت) سرد ذاتي خارجي أثار إدراكه جمال دمشق وشوارعها , مما حدث له، في تجواله في أزقّة دمشق و حاراتها القديمة , أيضا , من إدراك سحر المدينة بقوله : أدركت ,في قوله : (واصلتُ سيري إلى أن وجدت ضريح صلاح الدين الأيوبي , و كان هناك عدد من العمّال .. أخبروني أنه لا دخول قبل الساعة العاشرة , و كانت الساعة الثامنة , فوجدتها فرصة سانحة للغاية كي أتجوّل في الشوارع و الأزقّة و الحارات الدمشقية العتيقة , و أدركت أن دمشق مدينة ساحرة بلا رتوش ..)(١٤) .

وقد يُثير السرد الذاتي الداخلي حوارا داخليّا في نفس السارد ليهيئ له فرصة قول آرائه , نحو قوله : (سألتُ نفسي سؤالا محوريّا , عبارة عن : ما العقدة المبدعة من وراء دور صلاح الدين التأريخي ؟ فالملاحظ أن جميع الشخصيّات البارزة في التأريخ عموما وراءها عقدة مبدعة ..)(١٥) .

وكان أقوى ظهور للسرد الذاتي الخارجي و الداخلي قد حصل في سرده أحداث اليوم قبل الأخيرللرحلة (١٦) الذي بدا مزدحما بحركة السارد و أفكاره , فضلا

عن سرد أحداث اليوم الأخيرمنها,نحو قوله :(كان اليوم قبل الأخير لوجودي في المدينة التي فاجأتني بسحرها وهدوئها و جمالها , يوما مشحونا بالعواطف و المشاعر الجيّاشة , فقد ذهبت مسرعا , في المساء, إلى سوق الحميدية .. وأمام السوق قابلت طفلة سوريّة جـــميلة تبيعُ الحـــلوى.. وانـــصرفت , و عبر النفق المؤدي إلى السوق, و هناك كانت أشجار الياسمين الدمشقي تنتظرنيبعبيرها الفوّاح ,و تذكّرت شاعري المفضّل نزار قبّاني و أشعاره عن ذلك الياسمين ..وقطعت سوق الحميديّة مسرعا ..و وجدت زحاما كبيرا عند بائع آيس كريم..)(١٧) .

السرد الأوّلي

لم تمنع هيمنة السرد الذاتي على مجمل أحداث الرحلة من ظهور واضح للسرد الأوّلي , فقد روى به عوض أفعالا قام بها غيره , فهو خارجها , و ليس حاضرا فيها(١٨) ممّا يميّز هذا النمط السردي الذي يُدعى , أيضا , بالسرد من الدرجة الأولى(١٩) , أو السرد المباشر(٢٠) , فهناك أشخاص حقيقيون ظهروا في هذه الرحلة , و قاموا بأعمال و حركات سردها عوض بهذا النمط , على أنّها متعلّقة به , وهي أعمال ووقائع و أحداث واقعيّة جاءت في سياق هذه الرحلة وما جرى لمن قام بها , و هذا السرد كثيرا ما يختلط بالسرد الذاتي , نحو قوله : (قامت السيدة عـــفاف الحبّال , و هي سيدة مصريّة فاضلة تعمل بجامعة الشارقـــة , و موفورة النشاط والحيوية , بحجز مقعد لي على متن إحدى طائرات شركة طيران العربيّة و أكدت لي أنّ السفر موعده في العاشرة مساء يوم الأربعاء الموافق ٣٠ من يونيو و الوصول في الثانية عشرة يوم الأوّل من يوليو عام ٢٠١٠م .)(٢١), و قوله أيضا : (على أية حال هرولت عقارب الساعة لتعلن أنها التاسعة و النصف , اقتربتُ من السور الحديدي ..ووجدت اثنين من الحرّاس , وجاء رجل بأكواب الشاي , فأحضر لي كوبا فاحتسيته , ودار حديث بيني و بين حارس يدعى عدنان محمد قويدر غزال ..)(٢٢), وهكذا نجد أن كلّ الأحداث المروية

بالسرد الأوّلي متداخلة مع الأحداث المرويّة بالسرد الذاتي , و هي , عامة , تصوّر ما رأى السارد من أحداث مُتعلّقة به , قام بها غيره .

وقد يُستعمل السرد الأوّلي للدلالة على ذاتيّة السرد , عندما يسند السارِدُ الحدث لنفسه ,فيكون السرد أوّليّا في ظاهره , ذاتيّا في حقيقته , نحو قوله :(كانت نفسي تتلهف ..)(٢٣).

زمن السرد

الزمن عنصر جوهري في البناء السردي عامة , و لا يمكن الاستغناء عنه مطلقا , فالسرد مأخوذ من الحياة و معبّر عنها(٢٤), و الحياة مُقيّدة بزمن محدد لكل حيّ، و الرحلة التي سرد عوض أحداثها فعل ماض قياسا بزمن كتابتها و سرد ما جرى فيها , فيبدو أن عوض كان يدوّن أحداث يومه عند نهايته , في غرفته التي قضى فيها أيام رحلته القصيرة :(في هذه الغرفة بدأتُ تدوين كتابي عن (رحلتي إلى صلاح الدين الأيوبي)..)(٢٥) , لذا كان زمن السرد ماضيا معبّرا عن أحداث حدثت و انتهت، و هذا هو الطابع الزمني للرحلة مما ظهر في النصوص التي اقتبسناها سابقا, و يستطيع السارد أن ينتقي من أحداثها ,ما يشاء أو يعرضها كما يشاء , و لا ندّعي هذا على سارد هذه الرحلة , بيد أنّ الأمر يمكن حدوثه، كما أن ثمة ظهورا خافتا لما يُدعى بالسرد اللاحق أو المتقدّم الذي هو سرد استطلاعي يتحقق غالبا بصيغة المستقبل(٢٦)وجدناه في هذه الرحلة .

ذلك أنّ السارد يسرد , أحيانا , أحداثا يتوقّع حدوثها , أو يرغب فيها , نحو قوله : (على أية حال في يوم ٢٠ يونيو ٢٠١٠ م قررت السفر إلى هناك , بحثا عن بقايا تأريخٍ لذلك القائد , لعلي أجده في حواراتي مع الناس البسطاء في دمشق , الذين يعيش في أعماق أعماقهم بحضور لافت للانتباه .)(٢٧) , فقد أعلن , في قوله هذا عن توقعه و رغبته في أن يجد , لدى سكان دمشق و في نفوسهم , ما لم يجده في ما قرأ من أسفار التأريخ و مصادره .

واستعمل السرد المتقدم , في صيغته اللغوية المتمثلة باستعماله الظرف (إذا)الدال على المستقبل و المتضمّن معنى الشرط الذي يقوّي الزمن اللاحق, لوصف حدثٍ، حدثَ في الماضي، متعلّق بما فعله الغزاة بعد احتلالهم بيت المقدس من جرائم يندى لها جبين البشريّة , في قوله : (فإذا نظرنا إلى المسجد الأقصى وجدنا الغزاة قد جعلوا جانبا منه بمثابة كنيسة , والجانب الآخر جعلوه مسكنا لعناصر فرسان المعبد أو الداويّة , أما السراديب التي وجدت أسفل المسجد فقد جعلوها اسطبلا للخيول .)(٢٨), فالسارد هنا جعل من الزمن عنصرا تشويقيّا يقرّب به المشهد بجعله أكثرحضورا في ذهن القارئ , مُستقيا ما ذكره من خزينه المعرفي الغزير عن تأريخ الحروب الصليبيّة و ما شهدته من أحداث .

وتحدّث عن توقّعه اكتمال قصّة رحلته الذي سيتحقق بعد عودته الى الشارقة , مكان عمله وإقامته,مستعملا , لذلك , السرد المتقدّم بقوله : (عدتُ إلى الفندق مرّة أخرى , و واصلت الكتابة , وبلغت الصفحات ٦٠ صفحة , و أدركتُ أنّ الشارقة ستشهد اكتمال قصّة رحلتي إلى ذلك الرجل الذي اجتمع الناس على محبّته ..)(٢٩) .

وقد ظهر الزمن , في هذه الرحلة , عنصرا استرجاعيّا ,وظّفه السارد لإبداء آرائه المهمّة عما مرّ بصلاح الدين , مما سنذكره عن تناولنا وظائف السرد , فالبحث هذا يعدّ الاسترجاع والتداعي وظيفة ظاهرة أدّاها السرد في هذه الرحلة .

وظائف السرد

أدّى السرد , في هذه الرحلة , جملة من الوظائف التي أضاء بها ما رافق الحدث من شخصيّات , ومشاهد , و توثيق , و تعليل أو تفسير , و تداع أو استرجاع , و تواصل , وغير ذلك مما سنذكره في ما بقي من صفحات هذا البحث الموجز .

أُتخذ **الوصف** وظيفة سردية مثّلت وسيلة لكشف حال الشيء الموصوف و هيئته(٣٠) ,و هو من أكثر الوظائف السرديّة ظهورا في هذه الرحلة , فكثيرا ما

جاء، في أثناء السرد , موجزا , وقد يلجأ السارد إلى إيقاف السرد أحيانا ليتسنى له وصف ما يريد وصفه وصفا طويلا , على هذا فالوصف على نمطين في هذه الرحلة , وصف قصير , ووصف طويل ,نذكرهما في سياق عرضنا للموصوفات التي منها ما كان شخوصا , بعضها تأريخي , و بعضها الآخر معاصر ذو شأن في أحداث الرحلة هذه .

و لعل شخصية صلاح الدين الأيوبي من أكثر الشخصيّات التأريخيّة التي وصفها عوض , فالرحلة كانت من أجله و من أجل تعميق النظر في جوانب شخصيّته و خصائصها , و مهما قيل عن وظائف معيّنة(٣١) للوصف , فقد استعمله عوض،هنا , في بيان شخصيّة صلاح الدين تعبيرا عن عواطفه و حبّه له و إعجابه به , نحو وصفه له بقوله :(الفارس)(٣٢) و (فارس الاسلام)(٣٣) , و (أستاذي خالد الذكر)(٣٤) , و (نسر الشرق)(٣٥), و غيرها , و من المناسب الإشارة إلى أن عوض كان يختار بعض الأوصاف من طبيعة المرحلة التأريخيّة التي كان يتناولها , فقد وصف صلاح الدين بـ(فارس الإسلام النبيل)(٣٦) , لشيوع صفة (النبيل) في عصر الحروب الصليبية ,كما أنه أكثر من وصفه بالفارس للسبب نفسه على ما يبدو.

ويُطيل عوض وصفه صلاح الدين , أحيانا(٣٧) ,وقد يسند الوصف إلى شخص آخر معاصر لصلاح الدين , نحو قوله:(إن شخصيّة صلاح الدين , من خلال كتاب النوادر , شخصية ثرية، إنسانيّة متسامحة سياسية عميقة , و ديمقراطية بمعنى القدرة على الاستماع للآخرين , وعدم الانفراد بالرأي..)(٣٨), و مؤلف كتاب النوادر السلطانية هو بهاء الدين بن شداد المتوفى عام ١٢٢٤م(٣٩), على أنّ السارد يصدّق ما قاله ابن شداد عن صلاح الدين , كما يبدو .

إن هذا كله يدعونا إلى القول إن شخصية صلاح الدين التي عرفها عوض بقراءته سيرته في الكثير من الكتب ، وبتخصصه العلمي بشخصيته وما أحاط

بها من ظروف وحوادث، قد ظهرت قوية في وصفه له الذي عرضه من خلال سكان دمشق .

وتناول عوض شخصيّات أخرى بالوصف , بعضها تأريخي معاصر لصلاح الدين(٤٠) , وأكثرها معاصر , أسهم في أحداث الرحلة , و ظهر عنصرا من عناصرها السردية , و كان تناول عوض هذه الشخصيّات شاملا شخصيات ثانوية , ظهرت في حدث صغير , نحو حدث الذهاب إلى مطار الشارقة الذي اعتمد به عوض على سائق سيارة الإجرة الباكستاني , ذاكرا اسمه و طبيعة علاقته به , بقوله : (وصل إلى مسكني السائق الباكستاني وزير , وهو من كثرة تعاملنا معه صار كأنه واحد منّا .)(٤١), فضلا عن وصفه شخصيات أخرى قدّمت خدمات له، ممّا يُظهر الطابع الإنساني له و اعترافه بفضل الآخرين عليه تأدّبا, نحو وصفه الموظفة المصرية العاملة في جامعة الشارقة , و صديقه السوري الذي يعمل أيضا في الجامعة نفسها(٤٢) , و وصف الناس بالبسطاء(٤٣) , و أطفال دمشق بأنهم (تماما مثل أطفال مصر)(٤٤) , و وصف حارس ضريح صلاح الدين وصفا طويلا(٤٥) , و اتّسم وصفُ الشخصيّات هذه و غيرها بسهولة اللغة و مباشرة التعبير , مما يشمل أيضا وصفه الأماكن وغيرها , فقد عُني بوصف الأماكن التي ارتادها , و هي أوصاف دلّت على مشاعر حبّ يكنّها عوض لها , نحو حبّه سوريا التي وصفها بوطنه الثاني بقوله :(وطني الثاني سوريا العزيزة ..)(٤٦) , و وصف دمشق بـ (معشوقتي التأريخيّة دمشق)(٤٧) , و (دمشق المدينة الأسطوريّة .)(٤٨) , و كانشأن عوض على هذا النحو مع مدن عربية أخرى عرفها و أقام فيها و أحبّها , مثل مدينة أبها السعودية التي قال عنها : (أبها العزيزة الغالية الساحرة ..)(٤٩) , و كان قد وصف دمشق أيضا بالساحرة(٥٠) , و بـ(دمشق مدينة ساحرة ..)(٥١) , وقد وصفها أيضا,وصفا طويلا(٥٢) ووصف مطارها أيضا(٥٣).

و عبّر عوض عن مشاعره و ما كان يراه في نفسه بإزاء الأشياء و الشخوص و الأماكن عند وصفه إياها, فقد وصف شوقه بـــ (مستعر)(٥٤) و قال عن حزنه و ألمه بأنهما (حزن حزين وألم متألم .)(٥٥), في سياق تصويري , و بالطريقةنفسها قـــال عـــن الأمل الذي يساعـــد العرب على تـــجاوز كبـــوتهمالتأريخية:إنه (أمـــل أخضـــر وثّـــاب ..)(٥٦) ، إشارة إلى ثقته بنهوض أمة العرب في قابل الزمن.

إن السارد قد وصف أشياء أخرى بالطريقة نفسها المتسمة بظهور واضح للعاطفة , وبسهولة الأداء اللغوي و مباشرته , مما يغنينا عن الإكثار من الشواهد و ظهر **التوثيق** وظيفة سرديّة تتضافر مع الوصف في إضاءة السرد و ما أتى به من أحداث , فقد حرص عوض , انطلاقا من تقاليده الأكاديميّة , على ذكر تأريخ الحدث , نحو قوله :(على أية حال في يوم ٢٠ يونيو ٢٠١٠م قررتُ السفر إلى هناك ..)(٥٧) , و يؤرخ لشوقه رؤية دمشق و رغبته في ذلك , بعد أن عرف شيئا عن تأريخها , بقوله : (و أخيرا وضعت أقدامي على أرض دمشق ..التي كانت نفسي تتلهف لرؤيتها أي ألتقي بها كجغرافيا(كذا) , بعد أن عشتُ معها كتأريخ(كذا) , بدءا من عام ١٩٧٨م عندما تخرّجتُ في الجامعة و عُيّنتُ مُعيدا بكلّية الآداب , جامعة عين شمس , حيث بدأت رحلتي الماتعة مع عالم الصليبيين ..)(٥٨), و التوثيق هنا اختلط **بالاسترجاع** الذي يُعدّ وظيفة سرديّة أيضا , أي أن السارد يعمد إلى استرجاع ذكرياته و ما مرّ به من أحداث يثير ذكراها توثيقُه لها , مما ظهر أيضا في مواضع أخرى للتوثيق الزمني(٥٩) , ووثّق عوض لمكان حدوث الحدث , من ذلك قوله : (تناولت إفطاري , وكان رأسي تلفّه موجة من الصور و الأفكار و العبارات التي كنت أرددها على مسامع تلاميذي و تلميذاتي في جامعة عين شمس , وجامعة أسيوط , و جـــامعة حلوان , و الإمام مـــحمد بن سعود الإسلاميّة بأبها العزيزة الساحرة و جامعة

الشارقة ...)(٦٠) , و هو , كما نراه في هذا التوثيق , يسترجع أيضا ذكرياته التي استثارها هذا التوثيق و غيره(٦١).

وفسّر عوض , في سياق سرده أحداث رحلته , ما حصل له , وما اتخذه من قرارات , محقّقا وظيفة أخرى يمكن وسمها بوظيفة **التعليل** التي أوضحت الكثير من أسباب ما قام به السارد ,فقد علل اتخاذه قرار السفر إلى سوريا في السطور الأولى لرحلته بقوله : (قررتُ السفر إلى وطني الثاني سوريا العزيزة كي أزور صلاح الدين الأيوبي ذلك القائد الفذ ..)(٦٢), و بيّن سبب عدّه صلاح الدين مثالا يُحتذى بأنه لم يسع إلى تهريب أمواله إلى خارج بلاده , ممّا هو شائع عند كثير من حكّام عصرنا الحديث , فعوض ينفذ إلى نقد الحاضر و فضح سوءاته من خلال هذا التعليل , بقوله : (وهكذا قدّم مثالا يُحتذى به لكلّ حاكم , فلم يهرّب الأموال إلى الخارج , ولم يحتفظ بحسابات سرّية كما يحلو للبعض أن يفعل ممن ابتليت شعوبُهم بحكمهم , على الرغم من أن الدود سيأكلهم يوما , وسيلعنهم من سُرقوا على أيديهم .)(٦٣) , فكثيرا ما عرّض عوض , في هذه الرحلة , بما يشيع اليوم من مشكلات تنال من المجتمع العربي وتؤذيه, وهذا ما يُحسب له , فهو يؤمن بأن التأريخ للعبرة و لإغناء الحاضر و إثرائه .

وتواصل السارد مع قارئ رحلته محققا وظيفة سرديّة أخرى هي **التوصيل** بخطابه و دعوته لمشاركته ما يبديه من آراء , نحو قوله , بعد فراغه من حديثه عن الطابع الانساني لشخصيّة صلاح الدين : (بعد هذه السطور , ألا ترى معي أيها القارئ أننا أمام قائد مختلف , إنسانيّته تتفوّق على الكثيرين من قادة الغرب ؟ أتصوّر أنك تشاركني الرأي في ذلك دون أن نجامل.)(٦٤) .

وبرزت , في سرد هذه الرحلة , وظيفة مهمة احتلّت حيّزا كبيرا منه , تلك هي وظيفة **التمهيد** التي اُستعمل فيها السردُ ممهِّدا لقول عوض أفكاره و رؤاه و نظراته المعرفيّة والتأريخيّة و السياسيّة و غيرها , و هنا تظهر القيمة المعرفيّة و السياسيّة , خاصّة , لهذه الرحلة, فقد بدا السرد إطارا أوّليّا نفذ السارد , من خلال

بنيته هذه , إلى قول ما أراد قوله من معلومات عن صلاح الدين و ما أحاط به من ظروف و أحداث و شخصيّات و غيرها , فضلا عن أنه وجدها فرصة مناسبة لعرض آرائه الخاصّة , في أحـــداث التأريخ العربي الحديث , نحو قوله : (و أنا أجوب شوارع معشوقتي التأريخيّةدمشق , راودني حزن حزين , و ألم متألّم , إذ كيف سمحنا لأنفسنا – نحن المصريين و نحن السوريين – بأن تنهار الوحدة التي قامت بين بلدينا , و لم تعمّر سوى عامين فقط ؟ و المؤكّد أن هناك أخطاء عديدة ارتكبت من الجانبين , الجانب المصري , و كذلك الجانب السوري , إضافة إلى أن الاستعمار الغربي لم يكن ليقبل قيام وحدة بين الدولتين ..على أية حال علينا أن نستفيد من أخطاء الماضي , و ننظر إلى الأمام بأمل أخضر وثّاب , و من خلال صفحات التأريخ ندرك إدراكا يقينيّا أنّ في تعاوننا المشترك تجسيدا حقيقيا للشامصر التي آمنتُ بها إيمانا مطلقا .)(٦٥) , ففي هذا النص يظهر عوض عربيّا مؤمنا بوحدة الأمة سبيلا للخلاص و النهوض و تحقيق الشخصيّة الحضاريّة العربية الجديدة منطلقا من إيمانه بوحدة مصر و سوريا أوّلا (الشامصر).

وسرد عوض , في إحدى مشاهداته في زيارته ضريح صلاح الدين , أنّه رأى عددا كبيرا من النساء يزرن هذا الضريح , ثمّ انطلق , من سرده هذا الحدث سردا ذاتيّا خارجيّا و داخليّا, إلى تناول علاقة صلاح الدين بالمرأة و عنايته بها و احترامه شخصيّتها و حفظه كرامتها , معرّجا على السمات الحضارية لشخصيّته التي انبهر بها الغربيّون , على نحو ظهر في تصوّرهم إيّاه أنّه أشبه بالأسطورة(٦٦) , مما أظهر السرد ممهدا لهذا الحديث التأريخي الحضاري,الذي منه قوله : (خلال زيارتي لضريحه , وجدتُ عددا كبيرا من النساء يزرنه , و أتصوّر أنّ الكثيرات منهن لا يعرفن كيف تعامل مع المرأة ؟ و كيف كانت نظرته لها ؟ كان صلاح الدين الأيوبي مُتحضّرا تجاه المرأة , إلى درجة تُشعرنا أنه لم يكن من أبناء العصور الـــوسطى , بل مـــن أبناء الألفيّـــة الثالثة , و

أتصوّر أنّ تقديره للمرأة أحد عناصر شخصيّته .)(٦٧) , و سرد عوض , بعد ذلك أحداثا تأريخيّة تؤكد ما قاله عن صلاح الدين , بعضُها متعلّق بالصليبيين , نحو قوله : (و خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة , خطف قُطّاع من المسلمين طفلا صليبيا , والتاع قلب أمّه عليه , فنصحها الصليبيون بالإتّجاه للسلطان لأن قلبه رحيم , فأسرعت إليه تشكوه , فإذا به يأمر بالبحث عن الطفل و إعادته إليها , و أعادها مُعززة مُكرّمة لأهلها .)(٦٨) , ولا ينسى السارد عوض , في آخر حديثه هذا , أنّ يُنبّه القارئ على (أنّ تحضّر صلاح الدين لا ينفصل أبدا عن حضارة الإسلام ذاتها .)(٦٩).

ولعل البحث في وسعه الإشارة إلى أنّ ما حدث و يحدث في الألفيّة الميلادية الثالثة من انتهاكٍلحقوق الانسان فاق أيّ تصوّر.

ولم ينس عوض , كعادته , أن يربط ما حدث في الماضي بما يحدث في الحاضر و ما يتطلّبه من عمل لتجاوز نكسة الأمّة و كبوتها الحضاريّة , مما قاله في حديث آخر عن صلاح الدين أطّره السرد , ومهّد له :(إذ أدرك أنّ الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من القاهرة و من بعدها دمشق , و لذلك كان إخضاعه للقاهرة الفاطميّة عام ١١٧١م , ثمّ دمشق عام ١١٧٤م , المقدّمة الحقيقيّة لإنجاز عام ١١٨٧م (٧٠) غير المسبوق و حتى يومنا هذا , فإنّ بيت المقدس الأسيرة في قبضة الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٧م تؤثّر فيها تأثيرا كبيرا كلٌّ من القاهرة ودمشق ..)(٧١).

لقد ظهر عوض سارد هذه الرحلة و صاحبها مفكّرا سياسيّا أفاد من تجارب البشريّة في تأريخها الذي عُني به , مُحاولا أن يُضيئ الحاضر بأخذ العبر من أحداث التأريخ , مما نجده في مواضع أخرى كثيرة.

و السرد ,عامة , ذو لغة سهلة مباشرة , هي أقرب إلى لغة الصحافة اليوميّة مع ما يرافقها من شيوع أساليب حديثة , مع ظهور قليل لبعض الفنون البلاغية , البيانية خاصة .

و لابد من الإشارة هنا إلى أن الأستاذ محمد مؤنس عوض قد انتج عددا من الرحلات الأخرى(٧٢) , أظنها تستحق العناية بدرسها و إضاءتها .

هوامش البحث و مصادره :

(١) ولد في أسيوط بمصر عام ١٩٥٦م , حصل على شهادة الدكتوراه في تأريخ العصور الوسطى من جامعة عين شمس عام ١٩٨٨م , عمل أستاذا للتأريخ الإسلامي الوسيط في جامعة عين شمس في مصر , و في جامعات أخرى ,آخرها جامعة الشارقة , في الإمارات العربية المتحدة , ومازال فيها , أصدر عددا كبيرا من الكتب و البحوث و الدراسات و المقالات , و ما زال عطاؤه العلمي و الأكاديمي خصبا . يُنظر,رحيل ,محمد فوزي (تحرير) , دراسات في تأريخ العصور الوسطى الأوربية و علاقتها بالشرق , كتاب تذكاري مُهدى تكريما للأستاذ الدكتور محمد عوض مؤنس , مكتبة الآداب , القاهرة , ط١ , ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م , ٧ – ١٨ .

(٢) (٣)عوض , أ.د.محمد مؤنس , رحلة إلى صلاح الدين الأيوبي , دار العالم العربي , القاهرة , ط١ , ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م , ١٢.

(٤)نفسه , ١١٨.

(٥) جيرالد , برنس , قاموس السرديّات , ترجمة , السيد إمام , ميريت للنشر والمعلومات , القاهرة , ط١ , ٢٠٠٣م , ٢٣.

(٦) جينيت , جيرار و آخرون , نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير , ترجمة , ناجي مصطفى , منشورات الحوار الأكاديمي و الجامعي , دار الخطابي للطباعة والنشر , البيضاء , ١٩٨٩م ,١٠٢ .

(٧)جيرالد , برنس , المصطلح السردي , ترجمة , عابد خزندار , مراجعة وتقديم , محمد بريري , المجلس الأعلى للثقافة , مصر , ط٣ , ٢٠٠٣ ,١٠٦ .

(٨) عمر , أ.د.فائز طه , أدبيّة النص الفلسفي في التراث العربي الإسلامي , دار تموز، دمشق , ط١ , ٢٠١١م , ١٣٧ .

(٩) عوض , السابق , ١١ .

(١٠) نفسه , ١٢.

(١١) نفسه , ١٢.

(١٢) نفسه , ١٧ .

(١٣) نفسه , ١٥ .

(١٤) نفسه , ٢٤

(١٥) نفسه , ٦١ .

(١٦) نفسه , ١١٦ – ١٢٣ .

(١٧) نفسه , ١١٧ .

(١٨) جينيت , السابق , ١٠٣ , ١٠٤ .

(١٩) المرزوقي , سمير , وجميل شاطر , مدخل إلى نظرية القصة , تحليلا و تطبيقا, دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) , بغداد , ١٩٨٦ م , ١٠٠.

(٢٠) نجم , د . محمد يوسف , فن القصة , دار الثقافة , بيروت , د.ت. ٧٧, ٧٨.

(٢١) عوض , السابق , ١٢.

(٢٢) نفسه , ٢٥ .

(٢٣) نفسه , ١٣ .

(٢٤) عبيد , د. محمد صابر , و د. سوسن البياتي , مرايا السرد و جماليات الخطاب القصصي , دار العين للنشر , القاهرة , ط١ , ٢٠٠٨ م , ١٠٢.

(٢٥) عوض , السابق , ١٧.

(٢٦) المرزوقي , السابق , ٩٧ .

(٢٧) عوض , السابق , ١٢.

(٢٨) نفسه , ٥٥.

(٢٩) نفسه , ١١٩.

(٣٠) ابراهيم , د. عبد الله , البناء الفني لرواية الحرب في العراق , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ١٩٨٨م , ١٨٠ .

(٣١) جمعة , د. ابراهيم جنداري , الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ط١ , ٢٠٠١م, ١٨٠–١٨٣.

(٣٢) عوض , السابق , ٢٠.

(٣٣) نفسه , ١٢٢.

(٣٤) نفسه , ٨٥ .

(٣٥) نفسه , ٨٥.

(٣٦) نفسه , ٤٨, و يُنظر , نفسه , ١٢٣.

(٣٧) نفسه , ٣٢

(٣٨) نفسه , ٧٦.

(٣٩) نفسه , ٧٤.

(٤٠) نفسه , ٩٤, ١٠٥.

(٤١) نفسه , ١٣ .

(٤٢) نفسه , ١٢.

(٤٣) نفسه , ١٢.

(٤٤) نفسه , ٢٤.

(٤٥) نفسه , ٢٥ – ٢٦.

(٤٦) نفسه , ١١ , و يُنظر , نفسه , ١٤ .

(٤٧) نفسه , ١٥.

(٤٨) نفسه , ١٢٠ .

(٤٩) نفسه , ٢٢.

(٥٠) نفسه , ٢٤.

(٥١) نفسه , ٥٠.

(٥٢) نفسه , ٢٣ .

(٥٣) نفسه , ١٤.

(٥٤) نفسه , ١١.

(٥٥) نفسه, ١٥, و يُنظر , نفسه , ٢٣.

(٥٦) نفسه , ١٦.

(٥٧) نفسه , ١٢ .

(٥٨) نفسه , ١٣ .

(٥٩) نفسه , ١١ , ٢١, ٢٢, ٦٨ و غيرها .

(٦٠) نفسه , ٢٢.

(٦١) نفسه , ١٧ , ٦٦, ٦٨ و غيرها .

(٦٢) نفسه , ١١.

(٦٣) نفسه , ٣٢-٣٣.

(٦٤) نفسه , ٤٦ .

(٦٥) نفسه , ١٥-١٦.

(٦٦) نفسه , ٤٧- ٥٠.

(٦٧) نفسه , ٤٧.

(٦٨) نفسه , ٤٨.

(٦٩) نفسه , ٥٠ .

(٧٠) أي انتصار حطين .

(٧١) نفسه , ٦٦.

(٧٢) رحيل , سابق , ٩, ١٠ , ١١.